اتجاهات هدامة

في الفكر العربي المعاصر

الدكتور محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث ورئيس قسم اللغة العربية
بجامعتي الإسكندرية وبيروت العربية

دار الإرشاد

اتجاهات هدامة
في الفكر العربي المعاصر

الطبعة الاولى : الاسكندرية ١٣٨١ه (١٩٦١م)
الطبعة الثانية : بيروت ١٣٩١ه (١٩٧١م)

اتجاهات هدامة

في الفكر العربي المعاصر

الدكتور محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث ورئيس قسم اللغة العربية
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل الرسل رحمةً للعالمين . والصلاة والسلام على عبده ونبيه وخاتم رسله . سيدنا محمد بن عبد الله . الذي بلغ الرسالة فأسمعَ وأعذَر . وبَيّنَ وأوضَح . فهدَى اللهُ به من سبقت له في قديم عِلمه السعادة . اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابرهيم وعلى آل سيدنا إبرهيم . وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبرهيم وعلى آل سيدنا إبرهيم في العالمين . إنك حميد مجيد .

وبعد فإن لله في خَلْقه سُنَنا لا تتخلف . تَجري الأمور علينا بتقدير من عَليمٍ حكيم . وقد قضت حكمته – جل وعلا – أن يَضرِب الحقّ والباطل . وبشّرَ أهلَ الحق بأنهم هم الأعلَوْن إن صَبروا . وبأن الباطل زَهوق

وإن أُمهِلَ أصحابُه إلى حين . وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له . و (كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحون) . فأهل الباطل لا عمل لهم إلا الإفساد . (وإذا قيل لهم لا تُفْسِدوا في الأرضِ قالوا إنما نحن مُصلِحون . ألاَ إنهم هم المُفسِدون ولكنْ لا يَشْعُرون) . وأهلُ الحق مطالَبون بأن يجاهدوا الباطل ما وسعَتْهم الطاقةُ لا يَهِنُون ولا يَفْتُرون ولا يَقْنَطون . بذلك وحدَه تَبْرأ عُهْدَتهم عند الله ويُعْذَرون . ولعلَّ الله يَهْدِي بهم .

وقد دخل على مجتمعنا في القرن الأخير من دعوات أهل الباطل ما يُعرِّضه لفسادٍ يُؤْذِن بخرابه وانهدام بنيانه . إذا خُلِّيَ بين أصحابه وبين ما يريدون . وكان أخطرُ ما في هذه الدعوات أنها مُخطَّطة . تجري على دراسة محكمة دقيقة متعمِّقة ، يمدها مدد سخيٌّ لا يبخل بالمال . ومن وراء ذلك حليفان لا يغفلان . هما الصهيونية بكل أجهزتها ما ظهر منها وما خفي . والاستعمار بكل أشكاله المذهبية والاقتصادية .

وقد كنتُ ألقيتُ حديثا في جمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية في سنة ١٩٦١ أنبه فيه إلى وجه الخطر والضرر في بعض هذه الدعوات . ورأت الجمعية وقتذاك أن تطبعه تعميما للانتفاع به . ثم دعاني إلى إعادة نشرها ما جرى في الأيام الأخيرة من عودة بعض الداعين بهذه الدعوات إلى الجهر بدعواتهم . وكلُّها قديمٌ لا جديدَ فيه . إلا أن جيلا

جديدا يسمعها لم يكن قد سمعها من قبل . ولَـمّا كان من حق الجيل الجديد الذي يسمع الباطل لأول مرة أن يَسمَع معه صوت الحق ، فقد رأيتُ أن أعيد نَشْرَ هذا الحديث بعد أن ردّدْتُ النظر فيه . أسأل الله أن يتقبله وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

محمد محمد حسين

بيروت في ٢١ شعبان ١٣٩٠

(٢٢ — ١٠ — ١٩٧٠ م) .

كثر كلام الناس في هذه الأيام عن الهدم والهدامين . فأصبحت هذه الكلمة كأي كلمة يشيع استعمالها في عصر من العصور مائعة الدلالة غير واضحة الحدود . لأن الناس قلما يعودون إلى أنفسهم بالسؤال عن حقيقة معناها . لشدة ما يتوهمونه من كمال وضوحها . نتيجة لكثرة تداولها . ولذلك فاني أحب قبل أن أبدأ الكلام عن بعض الاتجاهات الهدامة في التفكير العربي المعاصر . أن أحدد المقصود بكلمة (هدام) .

يتكون المجتمع العربي — ككل مجتمع انساني — من تآلف الأفراد . وإنما يتآلف من الناس المتعارفون المتوادون المتراحمون . ويزداد تآلف الناس بقدر ما تقوى بينهم أسباب التعارف والتواد والتراحم والتواصل . التي تنبعث عن تماثل طباعهم وأمزجتهم . وتشابه أفكارهم ونظراتهم إلى الأشياء . وتبادلهم الأحاسيس والمشاعر والآراء في تفاهم تطمئن عنده النفوس .

ولكل مجتمع إنساني كبير عُمُد يقوم عليها صَرْحُه ويتماسك بها بناؤه ، لأنها تمثل أهم بواعث التآلف وأسبابه ، مثل اشتراكه في اللغة التي عن طريقها وحدها يتفاهمون ويتناجون ويتبادلون الآراء والمشاعر والمنافع ، واشتراكه في العادات والتقاليد . واجتماعه فيما يحب أو يكره . وفيما يألف أو يعاف . وفيما يستجيب له أو ينفر منه ، على ألوان معينة من غذاء الأبدان والقلوب والعقول .

فكل ما قصد إلى شيء من هذه العمد التي يتماسك بها مجتمعنا العربي أو أدى إلى زعزعته وتوهينه فهو المقصود بحديثي اليكم الليلة عن الاتجاهات الهدامة .

وقد يتبادر إلى أذهان بعض الناس ممن يأخذون الأمور بظواهرها ولا يتعمقونها ولا يَسْبُرُون أغوارها أن المجتمعات والأمم تقوم بالصناعة وبالمال وحدهما في هذا الزمان . وحقيقة الأمر أن فنون الصناعة وأسباب الاقتصاد إن استطاعت أن تبني المصانع وتبتكر الآلات وتشيد المنشآت فانها لا تستطيع أن تحمل العامل على الاخلاص وعلى بذل أقصى الجهد في إتقان العمل حين يأمن رقابة القانون . ولا تستطيع أن تمنعه من الاهمال ومن رداءة الانتاج الذي يؤدي إلى خسارة المستهلك وإلى إهدار الجهد والمال . ولا تمنعه من الاضراب المعطل للانتاج والمدمر للثروة العامة . ولا تمنعه من أن يقع فريسة للدعوات الهدامة التي تشيع الحقد والقلق وتقضي على الاستقرار الذي لا بد من توافره لضمان الانتاج ولاستتباب

الأمن والنظام . ولا تمنع من الإسراف ومن استغلال النفوذ ومن الجور والميل مع الهوى وملء الجيوب والبطون بالمال الحرام وتعريض المجتمع من آثار ذلك كله للاضطراب والفساد ، إذ يدب الفتور والوهن في عزائم المخلصين والعاملين حين يرون أن الفاسدين وغير الأكفاء هم الناجحون والفائزون .
ولا تستطيع كل فنون الصناعة وعلوم الاقتصاد وأسبابه أن تمنع الشعوب من استهلاك طاقاتها الحيوية — مادية ومعنوية — في الشهوات من مخدرات ومسكرات ودعارات . ولا تعصم زعماءهم وقادتهم من خيانة الأمانات وبيع الأوطان . طائعين بالإغراء أو مكرهين بالتهديد . وهي بعد ذلك كله لا تحقق الاستقرار ولا الطمأنينة . ومِنْ ثَمَّ فهي لا تحقق السعادة . لأن السعادة هي شعور بالطمأنينة والرضا والأمن . تسكن عنده النفوس وتنقطع دواعي الهم والإثارة والقلق .

إن الناس قد يُفتَنون ببعض الدول الكبرى . فيخدعهم مظهرها الضخم ويظنون أن نهايتها بعيدة . والحقيقة أن الدول الكبرى لا تضمر ولا تَذْوِي ولا تنكمش . ولكنها تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم الذي نخره السوس . حين يَخدع مظهرُه الناظرين فلا يتوقعون انهياره . كذلك انتهت كل الدول في روما وفي بغداد وفي الأندلس وفي الأستانة . انتهت حين كانت ضخامتها ومظاهر الترف واستبحار العلم والعمران فيها يخدع الناظر عن السوس الذي ينخر عظامها . ولذلك صرح المؤرخ الانجليزي المعاصر تُويْنبي في كتابيه

(Civilization and the west) & (Civilization on Trial)
بأن الحضارة الغربية تمر الآن في طور التدهور والانحلال الذي مرت به الامبراطورية الرومانية من قبل . من أجل ذلك كله كانت فنون الصناعة والاقتصاد وما يمدهما من معارف وعلوم غير كافية لتوفير أسباب الاستقرار والسعادة للمجتمع الانساني . وكانت الروابط الروحية والخلقية والفكرية هي العمد التي يقوم عليها صرح المجتمع ويتماسك بها بناؤه . لأنها هي وحدها التي تصحح دوافع الناس وتسمو بأغراضهم وأهدافهم عن الإسفاف . وبها وحدها يُقْبلون على التضحية راغبين . ويتقبلون نتائجها كسباً كانت أو خسارة راضين مطمئنين .

ويمكننا أن نرد الدعوات الهدامة التي تهدد سلامة الدول والأمم إلى واحد من أقسام ثلاثة . وهي : ما يقْصِد إلى هدم الدين . وما يقصد إلى هدم الخلق . وما يقصد إلى هدم اللغة .

على أن هذه الأقسام الثلاثة ترتد جميعا إلى القسم الأول في آخر الأمر . لأن هدم الخُلُق ليس إلا هدما للدين في جانبه الخلقي . ولأن هدم اللغة ليس إلا هدما للاسلام في لغته التي يتعبد بها المسلمون والتي حُفِظت فيها أصول دينهم . ولأن الدين كما يقول كاتب العصر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله « هو حقيقةُ الخُلُق الاجتماعي في الأمة . وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر

الاجتماعية عاليةً ونازلةً وما بينهما . فهو بذلك الضمير القانوني للشعب . وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية . وفيه . لا في سواه ، معنى انسانية القلب » .

« ولولا التدين بالشريعة لما استقامت الطاعة للقانون في النفس . ولولا الطاعة النفسية للقوانين لما انتظمت أمة . فليس عمل الدين إلا تحديدُ مكان الحي في فضائل الحياة ، وتعيينُ تَبِعَتِه في حقوقها وواجباتها ، وجَعْلُ ذلك كلِه نظاما مستقرا فيه لا يتغير ، ودفعُ الانسان بهذا النظام نحو الأكمل ، ودائما نحو الأكمل » .

« وكلُ أمة ضعف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية وماج بعضها في بعض . فإن من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض . وذلك لتنتظم الغاياتُ الأرضية في الناس ، فلا يأكل بعضهم بعضا . فيغتني الغنيُ وهو آمن . ويفتقر الفقيرُ وهو قانع . ويكون ثوابُ الأعلى في أن يعود على الأسفل بالمَبرّة ، وثوابُ الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته . ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الالهية الواحدة . التي لا يَكْبُر عليها الكبير ، ولا يَصغُر عنها الصغير ، وهي : الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى » .

والإيمان بالغيب والتسليم بحدود الله هو الأساس الأول للدين . لأن الدين إنما يوحِد الجماعات عن طريق هذه

المسلَّمات التي يتفقون عليها لا محالة . رغم اختلافهم في الأذواق، وتفاوتهم في الملكات، وفي أنماط الفكر ومناهجه، ونزعات النفوس وأهوائها . ولأن معرفة الانسان محدودة بحدود كثيرة . هي محدودة بحكم طاقة الحواس التي يستمد منها المعرفة . وهي محدودة بحكم الحيز الزماني الضئيل الذي يعيش فيه ويدركه ، لا يعرف ما قبله ولا يعرف ما بعده . وهي محدودة بحكم الحيز المكاني التافه الذي يحيط به . والذي لا يعرف ما وراءه في آفاق الفضاء . بل في أعماق الأرض والبحار إلا حدْساً ورجما بالغيب .

ولقد ملأ الغرور بعض الناس في السنوات الأخيرة حين طافوا بمراكب الفضاء حول الأرض وحين بلغوا بها القمر . وتزعزع إيمان بعض الضعاف وزاغت قلوبهم وعقولهم ، بين منكر للتجربة الواقعة وبين منكر للدين . ولو فكر هؤلاء وهؤلاء وتدبروا ما بين أيديهم لكان لهم فيما شاهدوا ويشاهدون عبرٌ وعظات، ولازدادوا به إيمانا . فقصار النظر ممن تُبطرهم النعمة وتَطيش عقولهم بالقليل من المعرفة هم وحدَهم الذين يَضلون . أما المتثبتون من المهتدين فهم يستيقنون بذلك كله ضآلة شأنهم وشأن أرضهم كلِها، وسعةَ مُلْك الله الذي لاتبلغ الأرض والقمر والمجموعة الشمسية بأسْرِها فيه شيئا. ويدركون به عجزهم وقصورهم وغرورهم في عبَثهم العابث: إذ بلغوا القمر قبل أن يكتشفوا أعماق الأرض والبحار تحت أقدامهم ، وتطاولوا إلى السماء قبل أن يكتشفوا علاجاً يردُّ أذى أضعف

خلق الله من جراثيم الأمراض التي لا تدركها العيون المجردة في أجسادهم كالأنفلونزا والزكام . ثم هم يوقنون أن الله سبحانه وتعالى قاهرٌ فوقَ عِبادِه ، قَهَرهم بالمرض وبالموت وبما يُفْجَأون به مما تضيق به حيلتُهم وتقصر عن دفعه طاقاتهم، كالعواصف والزلازل والبراكين والأوبئة ، وأنه لا مَفَرَّ منه ولا مَهْرَب . إليه يُرْجَعون طائعين أو كارهين .

ومن أظهر الأمثلة على عجز العقل البشري — تخيلا وإدراكا واستنتاجا — أن القسمة في منطقه لا تقبل إلا أن يكون العالم محدودا أو غير محدود ، ولا يستطيع أن يتصور وجود قسم ثالث يخرج عن هذين القسمين . ثم هو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يتصور أيًّا من القسمين ، زمانا أو مكانا . ذلك لأنه لا يستطيع أن يتصور حدودا للعالم — بدءاً أو نهاية — ليس وراءها شيء على الاطلاق — ولو كان هذا الشيء فراغا . ولا يستطيع أن يتصور شيئا لا حدود له ولا أول له ولا آخر . ومن هذا المثل الصغير — وغيرُه كثير — يتبين عجز العقل البشري . وذلك هو قول الله تبارك وتعالى فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم (فارْجِعِ البَصَرَ هل تَرَى من فُطورٍ * . ثم ارْجِعْ البَصَرَ كَرَّتَيْن يَنْقَلِبْ إليكَ البَصَرُ خاسِئاً** وهو حَسِيرٌ). فنظرة الانسان الأولى في الكون ترشده إلى وحدة نظامه ووحدانيةِ خالقه — سبحانه

* الفطر الشق والصدع . والمقصود هل ترى من خلل أو وهن .
** خسأ البصر (كقطع) ، وحسر البعير . (كنصر) كل وأعيا .

وتعالى — وبالغ قدرته وحكمته . ولكنه إن حاول الذهاب في التصور إلى أبعد أعماقه وصل إلى نقطة تقف عندها موجات فكره ويرتد عندها شعاعُ بصره عاجزا كليلا .

ذلك هو سبب وصف النبوة. بأنها رحمة للعالمين ، في مثل قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم (وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمَين) . لأنه حين علم ضعف العقل وعجزه — وهو العليم الحكيم — أرشد خَلْقَه الضعفاء فيما هو خارج عن حدود تفكيرهم إلى ما فيه خيرهم ، وأمرهم بلزومه والانقياد له — سبحانه — فيه ، سواءٌ أدركوا وجه المصلحة والخير فيه أو لم يدركوه . لأن ادراك الخير والشر . والنفع والضر . والجمال والقبح ، يحتاج إلى أن يحيط المدرِكُ بالوجود كله زمانا ومكانا وعلما . والانسان لا يعرف من الوجود المترامي الذي لا يحيط تصوره بأوله أو بآخره . إلا حاضره الذي لا يعد شيئا مذكورا إذا قورن بالوجود كله . بل إنه لا يدرك من هذا الوجود الراهن على تفاهته — إلا أقله . وهو مع ذلك كله — أو لذلك كله — يجهل العلة ويجهل الغاية . ومن كان هذا مبلغ عجزه ومنتهى إدراكه ، كيف يسوغ له أن يعارض مشيئة الله فيما أوحىَ إلى رسله،وفيما رسم من الحدود التي تميز الخير من الشر ،والنافع من الضار،والحلال من الحرام، بدعوى أنه لا يعرف حقيقتها أو لا يدرك وجه المصلحة والضرر فيها ؟!

إن غاية ما يطمح إليه الناس فيما يسنون من قوانين وما يبتدعون من مذاهب هو أن يضمنوا لأنفسهم حياة أرضية

أغنى . ولا أقول أسعد . نعم ، أغنى بمتع الجسد من طعام وكساء وشهوات . وقد لا تكون أسعد . بل هي على التحقيق والتمحيص أشقى وأتعس ، لأن صاحبها لا يطمئن ولا يرضى ، ولأن الناس فيها يفقدون التواد والتراحم والتواصل ، وبها وحدها تهون مشاق الحياة . ويصبح الواحد منهم تفجأه الكارثة فلا يجد معزيا ، وتغمره النعمة فلا يجد مهنئا ، وتحيط به المتاعب فلا يجد منجدا أو معينا . يعيش وحده حياة محدودة بين ناسٍ (يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) . ثم ماذا ؟ يقول عالمهم : لا أدري . وما هذا بعلم . إنه نفيٌ للعلم . وعلى الذي لا يعلم أن يلتمس العلم عند من يعلم . ولا سبيل إلى العلم هنا إلا بالوحي . والإعراض عنه مكابرة يحرم المكابر نفسه فيها من الانتفاع بخيرٍ أتيح له .

إن أحدا لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن هذه الحياة ليس وراءها إلا الفناء المطلق . وغاية ما يبلغه المفكر أن يقول إنه لا يدري ، أو أنه لا يعرف وجودا وراء هذا الوجود الأرضي ، أو حياة وراء هذه الحياة الدنيا . وبعضهم يقول : لماذا نفكر فيما وراء هذه الحياة ؟ ليكن وراءها ما يكون . ولنحصر جهدنا في إسعاد أنفسنا في هذه الحياة . وليتهم يفعلون . فحتى هذا الهدف الداني القريب لا يبلغونه . والدين أوضح من كل فلسفاتهم ومذاهبهم هدفا وأساوبا في بلوغه وتحقيقه . بتركية النفس . والسمو بها على الواقع . حتى تصبح مسيطرة على الجسد وشهواته ، والدنيا ومطامعها . لا يقهرها

شيءٌ منها ولا يُذلها ولا يُشقيها . لأنها تسمو على الأحزان . ولا يُعَذّبها الشعور بالحرمان .

ومع ذلك فنحن نقول لهؤلاء الذين يرفضون التفكير فيما وراء الحياة : لماذا تعلّمون الناشىء من الصبيان أن يفكر في مستقبله ، وتنصحونه بالإعراض عما تدعوه إليه نفسه من اللعب واللهو والاستمتاع بدواعي الشباب ، ضماناً لمستقبلٍ أفضل ؟ وأنتم تعلمون أن هذا المستقبل الأفضل قصير محدود مهما طال؟ ولماذا تكدُّون في شبابكم من أجل شيخوخة أفضل قد لا تبلغونها ؟ ولماذا تدّخرون المال وتحرمون أنفسكم من الاستمتاع به احتياطاً لمستقبل قد لا يجيء ؟ ولماذا تَصفون المُعْرِض عن ذلك كله بالحماقة وقِصَر النظر ؟ أَليس الذي يبيع حاضرا راهنا محدودا بمستقبل مديد لا يَحُدُّ امتدادَه الخيالُ أحمقَ منه وأقصرَ نظرا ؟ أرأيتَ الرجل الذي ضيع صباه وشبابه ، حين يرى أقرانه ممن أحسنوا إعداد أنفسهم في الصبا والشباب . فجنوا ثمرة ذلك حياةً أنعَم ومستقبلا أفضل ؟ فحسرةُ الذي ضيّع حياته الدنيا أكبرُ وأعظم ، حين يرى سواه ممن جَدّ فيها وأحسن إعداد نفسه لما وراءَها .

ولماذا تُخطِّط الدول للمستقبل البعيد ولا تَقْنَع بالحاضر الراهن ؟ ولماذا تَحرِم شعوبَها وتدعوهم إلى أن يَشدّوا الأحزمة على البطون من أجل مستقبل أفضل ؟ مع ما قد يتعرضون له من مفاجآت تفسد تدبيرهم في هذا المستقبل

الذي يخططون له ؟ فالتخطيط للمستقبل الأبقى والأدوم أولى وأحرى . والإعداد لما وراء هذه الحياة الدنيا من حياة لا تتعرض للمفاجآت المخيِّبة للآمال أحق بالعناية والتدبير .

من ذلك كله يبدو بوضوح أن الدعوة إلى إنكار الدين باطلةٌ مِنْ وجهين : أولهما هو أنها دعوة سلبية لا برهان لصاحبها على صحتّها . وثانيهما أنها تستند إلى منطق يناقض منطق دعاتّها في الحياة وفي تخطيطهم للمستقبل إلى أبعد ما يتخيّلونه .

من أجل ذلك كان الطعن في الايمان بالغيب هدما للعقيدة الدينية في لبها وفي صميمها وفي أساسها الأول الذي لا قيام لها بغيره . وأكثر ما يذاع في هذا الباب مما يدعو الناس إلى الشك في كل ما يخرج عن دائرة المحسوس يصدر باسم العلم والعلمانية . وباسم حرية الفكر والتحرر من عبودية التقليد .

والعلمانية Secularism والتحررية Liberalism كلاهما مذهبان أوربّيان مناهضان للدين برزا في القرن الميلادي الماضي . وسرت عدواهما فيما سرى إلى العرب والمسلمين والشرق على وجه العموم ، حين نظروا بعين الوهم من أعماق ضعفهم إلى الغرب في ذروة تفوقه ، فظنوا أن كل ما يصدر عنه حق وجميل[1] .

---

(١) ترجع أصول التحررية Liberalism بمختلف أشكالها : الفكرية ، والدينية ، والسياسية ، إلى ما يسميه مؤرخو الغرب بحركة الاحياء Renaissance=

ويلتقي المذهبان عند الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس،ونبذِ كل ما لا تؤيده التجربة . والتحررِ من العقائد الغيبية التي هي عندهم ضروب من الأوهام ، ومن العواطف بكل ضروبها وطنيةً كانت أو دينيةً ، بزعم أنها تضلل صاحبها وتَحُول بينه وبين الوصول إلى أحكام موضوعية محايدة . والمذهبان كلاهما أثر من آثار سيادة الدراسات التجريبية الحديثة التي يطلق عليها الغربيون الآن اسم Science ، والتي حررت الناس ــ حسب زعم العِلْمانيين واللِبْراليين* ــ من الضلال والأوهام والخوف . فالأديان كلها عندهم أساطير ،كان الناس يخضعون لما تخوفهم به من العذاب . ثم تحرروا من هذا الخوف ، ولم يعودوا يهابون العذاب الموهوم الذي زعمته هذه الأديان ، ولم يعودوا يخدعون كذلك بما زعمته لهم من ثواب وما علّلتهم به من نعيم .

وقد غاب عن هؤلاء المساكين أن الدراسات التجريبية محدودة الميدان والمدى ، لا تتناول إلا المدرَك المحسوس . والمدرَكُ المحسوس أقل بكثير مما لا يخضع لحسّنا وإدراكنا ، بل هو لا يقاس إليه،ويعتبر كأنه ليس شيئا مذكورا إلى

=في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ولكنها بلغت قمة نشاطها في القرن التاسع عشر .

* هذا الاصطلاح بلفظه الأوربي أفضل في تقديري من الاصطلاح العربي المترجم (التحررية) . فالترجمة العربية تكسب المذهب شيئا من البريق الجذاب الذي لا يستحقه .

جانبه . وقد عرف أصحاب هذه الدراسات التي يتمسح بها دعاة التحرر والعلمانية ذلك ، حين اكتشفوا أن الموجات التي تدخل في مدى إدراكنا الحسي ليست إلا شيئا ضئيلا تافها بالقياس إلى المعروف منها فضلا عن المجهول . وأصبح عجز الحواس البشرية شيئا مقررا تؤيده الدراسات التجريبية نفسها . فالعين البشرية مثلا ينحصر مدى إدراكها فيما بين الموجات الضوئية التي طولها ٠,٠٠٠٠٧ والموجات الضوئية التي طولها ٠,٠٠٠٠٤ من السنتيمتر ،وهي الموجات المحصورة بين اللون الأحمر واللون البنفسجي. وهي لا تدرك بعد ذلك شيئا مما فوق البنفسجي ومما تحت الأحمر . وقل مثل ذلك في حاسة السمع وفي سائر الحواس . ومن المعروف والمشاهد أن الكلاب والخيل وكثيرا من الحيوان — الأليف منه والوحشي — تدرك بعض ما لا ندركه . ولا نزال نعتمد على الكلاب خاصةً ونستعين بها في الحرب وفي السلم،مستغلين اتساع مدى هذا الادراك فيها . وإذا ثبت قصور الحواس فقد ثبت قصور التفكير البشري المبني على مشاهدات هذه الحواس .

ولا يزال علماء الفلك يقفون مشدوهين أمام ذلك الفضاء الغامض ، لا يعرفون مقاييسه وأبعاده إلا ظنا. بل إن بعض ما يستنتجونه أدعى للحيرة من الجهل به . فهم يقدرون أن بعض النجوم — أركتورس مثلا — تبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية . ومعنى هذا أن ذلك النجم الذي نراه الآن لا نراه كما هو الآن . ولكننا نراه كما كان منذ ثلاثين سنة . لأن

الشعاع الضوئي الذي يصل إلى أبصارنا الآن هو الذي انبعث منه منذ ثلاثين سنة . ومعنى ذلك أن من الجائز أن يكون ذلك النجم الذي يبدو لأنظارنا الآن غير موجود الآن في حقيقة الأمر. ويقدر الفلكيون أن بعض المَجرّات يبعد عنا ملايين من السنين الضوئية ومئات الملايين . أليس هذا العلم أدعى إلى الحيرة من الجهل وأدنى إلى أن يكون تعبيرا عن جهلنا وقصورنا؟ثم أليس يدل هذا ومثله — وهو كثير في الدراسات الفلكية خاصة — على ضآلة مدى الدراسات التجريبية من ناحية،وعلى صعوبة إدراك حقائق الأشياء الأصيلة من ناحية أخرى ؟ إن المنهج التجريبي يستطيع أن يوصلنا إلى تسخير بعض الظواهر والطاقات وتطويعها لمصلحتنا . ولكنه لا يوصلنا إلى حقائق هذه الظواهر والطاقات . أليس الكفر بالله وبرسالاته نتيجةً لهذا القليل الذي أتيح لنا الوصول إليه من آثار الكشوف الأخيرة ، لونا من البطر ومن الغرور الذي يدرك ضعاف النفوس ، حين يصيبون حظا قليلا من النعمة أو القوة ؟ ليت الذين أبطرهم ما عرفوا — وهو قليل — يقرءون ما قاله بعض من عرفوا أقدار أنفسهم من المشتغلين بالدراسات الرياضية والتجريبية . ليتهم قرأوا قول أينشتين (إن أجمل الأحاسيس وأعمق العواطف هي تلك التي نتعرض لها عند بحث الخفايا ، لأنها تؤدي إلى العلم الحقيقي . وكل من ينكر هذه الأحاسيس ولا يتعرض للدهشة أو للرهبة ، فانه يعتبر في عداد الأموات . والمؤمنون هم الذين يعلمون أن هناك

أشياء تخفى على علمهم . وهذا هو غاية الحكمة ، وأقصى درجات الجمال المشعّ التي تستطيع حواسنا القاصرة إدراكها) .
وليتهم قرأوا قول نيلزبوهر (إن الناس إما ممثلون أو متفرجون في تمثيلية وجودهم . فالانسان هو نفسه أكبر أعجوبة غامضة في الحياة . فهو لا يدرك الكون الغامض الذي يعيش فيه ، لأنه لا يدرك كُنْهَ نفسه . فهو لا يعلم إلا القليل من أمر العمليات العضوية في جسمه . ويعلم الأقل من ذلك في شئون عقله وقدرته على فهم الدنيا التي تحيط به . بل إن قدرته محدودة في التعليل وفي التخيل . بل إنه يكاد يكون عاجزا عن فهم أنبل وأعجب خصائصه . ألا وهي قدرته على السمو بنفسه وإدراك كنهها في عملية التصور والتخيل) .
ليتهم قرأوا ذلك – وغيره كثير – ليعلموا أن الكفر بالغيب ليس ثمرة المعرفة ولا ثمرة العلم ولكنه من آفات القليل من المعرفة والقشور من العلم .
وبعض الذين يتظاهرون بالاعتدال والاتزان من دعاة اللبرالية والعلمانية يقرنون الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه بالعباقرة والمصلحين . ويضعونهم معهم على قدم المساواة . فيزعمون أنهم رجال أفذاذ قد ثاروا على معتقدات عصرهم وحرروا أفكارهم مما ورثوه عن أسلافهم . وهؤلاء المعتدلون أخطر وأمعن في الهدم من المتطرفين. لأنهم أقدر على خداع السذج من المؤمنين الذين قد يَدِقّ على أفهامهم ما يُخفي هذا المذهب تحت مظهره البراق من خطر . فلا يفطنون إلى

أنه يجرهم من حيث لا يدرون إلى إنكار الوحي ،وإلى اعتبار الأنبياء فلاسفة ومفكرين، تخضع الديانات التي جاءوا بها للنقد والتعديل ، وللتنقيح والتهذيب . لأنها نابعة من تفكيرهم وليست منزّلة بالوحي . وهذا هدم للتصور الأساسي للإيمان . لأنه يقوم على اعتقاد أن الدين منزّل من عند الله وأن النبي رسول يبلّغ رسالة الله ، ليس له عمل عقليّ فيما يبلّغه . ثم إن هذا المذهب يدعو الناس — كلّ الناس — أن يسلكوا هذا الطريق الذي زعم أنه النقطة التي بدأ منها الأنبياء،وهي الشك في كل العقائد والآراء،وتخطي حرمة كل مقدّسٍ مَصُون،ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون . وبعض المسلمين ممن تأثروا بهذا المذهب يركبون الشطط في تأويل المعجزات وكلّ ما يتصل بعالَم الغَيْب . فيقولون مثلا إن المقصود بالشيطان هو العقل الباطن ، وأن الجنة والنار حالات عقلية نفسية . وأن الإسراء والمعراج انتقال عقلي أو روحي كالذي يحدث في الأحلام ، وأن قصص القرآن وما جاء فيه من مِثْلِ خَلْق الدنيا وخلق آدم وخروجه من الجنة ليس إلا تمثيلا . وأن المقصود بإمداد الله رسولَه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وأنزل جنودا لم تروها) هو قوة الروح المعنوية . ومن الواضح أن الذي ينكر المعجزة لغرابتها وشذوذها عن المألوف خليق أن ينكر الوحي نفسه لأنه أمعنُ في الغرابة وفي الشذوذ عن المألوف . والذي يعتقد حقا أن النبي صلى الله عليه وسلم يَتَنْزِل عليه جبريلُ مرسَلاً من عند الله

سبحانه وتعالى ، كيف يَكْبُر عليه أن يسلم بما يُجرِي الله على يديه من غرائب وما يحفه به من أسباب الرعاية التي تخالف مألوف العادة ؟

وقد يخفى على كثير من الناس أن الروحية الحديثة التي تعتمد على استحضار أرواح الموتى — حسب زعمهم — أو ما يسمونه Spiritualism هي في حقيقة الأمر شعبة من العلمانية Secularism . لأنها تقوم على الدعوة إلى اخضاع عالم الغيب للتجريب . فهي تلبس مسوح العلم وتصطنع اسمه حين تزعم أنها تجري التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا . وتدّعي أن هذا هو سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادية الطاغية . والواقع أنها ليست حربا على المادية كما يزعم أصحابها . ولكنها إغراق فيها وإمعان في التمسك بها . لأنها لا تقنع باخضاع المحسوسات للمنهج التجريبي . ولكنها تتطاول إلى ما وراءها تريد أن تخضعه للتجربة . وإذا سلّم الناس بذلك انتهى بهم الأمر إلى إنكار كل ما لا يمكن ثبوته عن هذا الطريق .

وقد تفرع عن الليبْرالية دعوةٌ موجهة إلى الشباب — وإلى طلاب الجامعات بوجه خاص — تدعوهم إلى أن يتجردوا من كل مواريثهم الفكرية والخلقية . وأن يرفضوا نصائح الأجيال السابقة وتعاليمهم . وأن يعتمدوا على عقولهم وحدها في انتهاج طريقٍ لهم في الحياة مستقلٍ عن كل ما سبقهم وما يحيط بهم . متبعين في ذلك فكرهم وحده . ذاهبين وراءه

إلى حيث ينتهي بهم . كيفما كانت النهاية .

والدعوة هدامة من أكثر من وجه . فهي تقضي على كل جهد مثمر للتربية الصحيحة . التي تقوم على توقير الصغير للكبير وثقته به فيما يُلقَى إليه من آراء مَنْ هم أكثر منه علما وتجربة . حتى يبلغ من النضج ما يسمح له بالاستقلال في مناقشة الأمور . وهي تدعو الشباب إلى أن يعتبروا تفكيرهم في مستوى تفكير من يكبرُهم علماً وتجربة ، بل في مستوى تفكير الأجيال السابقة مجتمعةً بكل تجربتها وخبرتها فيما أجمعت عليه . وهذا أمر قد يستهوي الشباب ، ولكنه يحرمه من التربية الصحيحة النافعة من جهة . ويحرم البشرية من التقدم البناء من جهة أخرى . لأن كل جيل سيبدأ دائما من نقطة الصفر . والبشرية في فكرها وفي خبرتها إنما تتقدم لأن الخلَف يبدأ من حيث انتهى السلَف . ولو تساوت خبرة الناشيء بالشيخ لكان ذلك حُكْماً على البشرية بأنها تحيا حياة البهائم لا تستفيد من حياتها ولا تتعلم جديدا .

ثم إن هذه الدعوة تُفْقِد المجتمعات صفة الاستقرار التي تقوم على الالتقاء عند مقررات تشبه المسلَّمات من ناحية . وعلى التلاحم المبني على التوادّ والتعاطف من جهة أخرى . إذ لا سبيل إلى الالتقاء عند مقررات ثابتة . دينيةٍ أو خلُقية أو فكرية ، مع الدعوة إلى عدم توقير شيء . ولا سبيل إلى التوادّ مع ما ينشئه هذا التمرد من عداوة بين جيلين تنتظم الحياةُ وتحلو بالتعاون بينهما . عطفاً ورعاية من جانب

الشيوخ . وبِراً ووفاءً من جانب الشباب . ومن عَجَبٍ أن هذه الخصومات الهدامة المفسدة للدنيا والدين قد أصبحت الدعوةُ إليها طابعَ العصر . وهذا ما يدعو إلى التفكير في اليد التي تحركها، والتدبيرِ الذي يخطط لها، والهدفِ الذي تسعى إليه . فالدعوات الباعثة على الخصومة قائمةٌ بين الشيوخ والشباب . وبين الذكور والإناث . وبين الأغنياء والفقراء . وبين العمال والمثقفين . وذلك كله مفسد للحياة لا شك . لأن جمالها وسعادة من يعيشونها تقوم على التواد والتعاون بين هذه الطوائف والطبقات . التي لا يستقل بعضها عن بعض . ولا يُغْني أحدُها غَنَاءَ الآخر . وقد تكشف الأيام من بَعْدُ عن أن الصهيونية العالمية من وراء هذا التخطيط الذي يهدف إلى تدمير المجتمعات العالمية وإرهاقها بالفوضى والقلق الذي ينتهي بها إلى اليأس . تمكينا لقبضة اليهود منها . بل إن (مقرّرات حكماء صهيون) ونشرات جمعية (شهود يهوه) تشهد بذلك منذ الآن .

وإلى جانب هذه الدعوات التي تستهدف هدم أصول التدين برفض الإيمان بالغيب والدعوة إلى التحرر من كل المقرّرات القائمة والسابقة . كانت هناك دعوات أخرى تستهدف هدم الإسلام على وجه الخصوص . وكانت هذه الدعوات تسلك إلى أهدافها مسالك متباينة . وتلبس أثوابا مختلفة . ولكنها جميعا ترمي آخر الأمر إلى توهين أثر الاسلام

في النفوس . وتفتيت وحدته التي استعصت على القرون الطوال .

فمن هذه الدعوات ما يتصيد مواطن الشبهة والغموض في الشريعة الاسلامية وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح من صحابته عليهم رضوان الله ، ليفتن بها الأغرار الذين يدق عليهم فهم وجه الخير والمصلحة ، أو الحق والواقع . فيما يساق من مزاعم . لأنهم لم يتحصنوا بالقدر اللازم من الثقافة الاسلامية ، الذي يمكنهم من اكتشاف مواطن الخطأ والتضليل فيما يسوقه الهدامون من أباطيل . وأسلوب الهدامين في ذلك مشهور معروف . فهم يفترضون الفرض بما تمليه عليه أهواؤهم وأغراضهم . ثم يلتمسون الأدلة على إقامته من النصوص الاسلامية . فيأخذون منها ما يؤيدون به مزاعمهم ، بعد أن يبتروه مما قبله ومما بعده ، ويحرفوه عن موضعه . وينقلوه عن دلالته . ثم يهملون ما لا يتفق مع مزاعمهم ويتجاهلونه . وينظر القارىء الساذج من المسلمين فيما كتبوا . فيجد كثرة من النصوص المُسنَدة إلى مراجع وثيقة . ولا يتنبه إلى ما فيها من تحريف ، ولا يتسع وقته لمراجعة ما أحاطها من سياق وما حفها من أسباب . فتقع من نفسه موقع القبول والاقتناع . لأنه لا يعرف . لقلة بضاعته من هذه الثقافات . أن هناك من النصوص الأخرى التي تَنْقُضُ تلك المزاعم أضعافَ ما ساقه الكاتب . ولأنه لا يميز . لضآلة إلمامه بالعلوم الاسلامية وطرق روايتها .

بين قويها وضعيفها .

ومن هذه الدعوات ما يحاول إظهار الشريعة الإسلامية بمظهر الشريعة البدائية التي تلائم البدو ولا تصلح للمدنية . وقد دأب الاستعمار على ترديد هذه المزاعم . وشجع – باسم الإصلاح والاجتهاد – كلّ حركة ترمي إلى إعادة تفسير الاسلام وتأويل نصوصه بما يبرر الحضارة الغربية ويساعد على ترويجها بين العرب والمسلمين . ذلك لكي يمحو الطابع المميِّز لهم ، والذي هو قِوَامُ شخصيتهم ، والذي إليه يستندون ومنه يستمدون في ثوراتهم التحررية المهدّدة لمصالح الاستعمار . وذلك هو السبب فيما كان من تشجيع الإنجليز للشيخ محمد عبده ولمدرسته بكل شُعَبِهَا : الدينية ، والاجتماعية والسياسية . فقد أشار اللورد كرومر في الفقرة ٧ من تقرير سنة ١٩٠٥ التي كتبها بمناسبة وفاته . وفي كتابه Modern Egypt إلى أنه هو المؤسس لمدرسة فكرية حديثة في مصر ، قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند . ثم قال إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوّة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين . وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدّم لهم كلُّ ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربيّ . وقد نقل نيومان قول كرومر هذا ، في كتابه : Great Britain In Egypt ثم قال « إن التطورات التي يجتازها العالم الاسلامي الآن (سنة ١٩٢٨) تجعل لكلمات كرومر دلالة خاصة » . وأشار

إلى انتشار آراء الشيخ محمد عبده وتأثر كثير من المسئولين بها في مصر وقتذاك (سنة ١٩٢٨) . وقد أكد H.A.R. Gibb ذلك في المقال الذي كتبه في كتاب Whither Islam ثم في كتابه Modern Trends In Islam الذي وصف فيه مذهب الشيخ محمد عبده بأنه (**خشبة الخلاص في حركة التحرر العلمانية**) .
ثم عاد اللورد لويد إلى تأكيده في كتابه Egypt since Cromer حين أشار إلى الخطة الانجليزية التي ترمي إلى أذبال شوكة العصبية باسم التسامح والأخوة الانسانية . تمهيدا لخلق رأي عام موال للانجليز ، لكي تقوم العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل .

وهناك فرق دقيق قد يَخفَى على غير المدقق بين هذا المذهب وبين اختلاف الاجتهاد تبعا لاختلاف الظروف والأحوال . فالاجتهاد الصحيح لا يضع أمام عينيه رأيا أو نظاما يَلوِي رقاب النصوص الاسلامية حتى يسوقها إليه ، ولكنه يستوحي النصوص الاسلامية حُكمَها في هذه الآراء والنظم . فأحدهما كما ترى يسيطر على النصوص . بينما يَخْضَع الثاني للنصوص . أحدهما يُبرّر بالنصوص الاسلامية عِوَجَ الحياة ، والآخر يُقَوّمُ بنصوص الشريعة عِوَجَ الحياة . أحدهما يوجه اهتماما خاصا إلى بعض النصوص ويهمل بعضها الآخر ،أو يَغُضُّ منه ويجعله في مرتبة غير أساسية ، والآخر يؤمن بالكتاب كلِّه فيسوّي بين النصوص في الأهمية. أحدهما يحكّم آراءً دخيلة في الدين فيفسره في

ضوء ما يذهب إليه مفكرو الغرب وفلاسفته . والآخر يُحكّم الدين في كل فلسفة دخيلة أو مذهب طارىء فيقبل ما يُسيغه ويرفض ما لا يرضاه . أحدهما قد يضيف إلى الدين وقد يُخْرِج منه بتحليل بعض الحرام وتحريم بعض الحلال ، والثاني يعرف أن الدين قد كَمُل وتمّ منذ نزل قول الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في حَجّة الوداع (اليَوْمَ أكملْتُ لكُمْ دِينَكم وأتمَمْتُ عليكم نِعْمَتي ورَضِيتُ لكم الاسْلاَمَ دِيناً) .

إلى هذا الأسلوب في هدم الاسلام . وإلى ذلك الفريق من الهدامين . أشار شيخ الإسلام محمد الخضر حسين — رحمه الله وأحسن جزاءه — حين قال (ترى أحَدَهم يؤذي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بأشدّ ما يؤذيه عدوُّه الكاشح . ويضع على هذا الايذاء نقابا من مثل تسميته النبي . وقوله كما يقول المؤمنون « صلى الله عليه وسلم » . ولا يتباطأ قلمُ أحدهم عن أن يصف الدين بالسماحة والحكمة . ويخفي إلحاده . إلى أن يتحدث عن شيء من أصوله أو أحكامه المفصّلة . فتراه ساعتئذ ينكرها متغافلا عن أنها من الدين ، أو متأولا لنصوصه التي لا تقبل التأويل . وأصحاب هذه الطريقة يعدُّون أولئك الذين يحاربون الدين جهرة من البُلْه الذين لا يعرفون كيف يهدمون) .

والواقع أن استخدام نصوص الشريعة الاسلامية في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية هو شرٌّ من تقليد هذه الأنماط

تقليدا أعمى . لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت فيهم حركة أصيلة للإحياء . أما في الحالة الأولى – وهي حالة اندماج وتفاعل – فان إدراك الحدود بين الأصيل والدخيل تَدِقُّ وتَخْفَى حتى لتكاد تستحيل . لأن الناتج من التفاعل سيكون شيئا جديدا معقد التركيب ، تختلف خصائصه وصفاته عن كلٍّ من العنصرين المكونين له. ولأن الناس يدركون في حالة التقليد أن الذي يفعلونه شيء آخر غيرُ الاسلام . أما في الحالة الأولى ، فسوف يرسخ في أذهانهم أن ذلك هو التفسير الحق للاسلام ، الذي يلائم ظروف الزمان . وسوف يرفضون كل محاولة لردهم إلى الحق ، لأنهم يتوهمون أنها دعوة رجعية جامدة .

ومن هذه الدعوات ما يتخذ أسلوبا في الهدم أكثرَ خفاءً ، ولكنه أشد خطرا وأبلغ أثرا . ذلك أنه لا يَعْرِضُ للدِّين بتصديق أو تكذيب . ولكنه يقارن بينه وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير ، تاركا للقارىء أن يستنتج من ذلك ان الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير التي لا تصلح إلا للتلهية ولامتاع الخيال وتَزْجِيَةِ أوقات الفراغ ، وأنها من إنتاج العقل البِدائي الذي كان يعتمد على الخيال في تعليل ما يحيط به من أسرارٍ عجز عقله عن إدراك حقيقتها . والتعليلُ الصحيح لما نجده من اتفاق في بعض الأحيان بين الأديان السماوية وبين بعض الأساطير الوثنية مَرَدُّه إلى أن هذه الأساطير الوثنية هي في حقيقة أمرها صورةٌ محرّفة من أديانٍ

سماوية سابقة . فالله سبحانه وتعالى يقول (وإنْ مِنْ أُمَّة إلا خَلاَ فيها نَذِيرٌ) . ويقول تعالى في دعوى اليهود أنَّ عُزَيْراً ابن الله وفي دعوى النصارى أن المسيح ابنُ الله (يُضاهِئونَ قَوْلَ الذين كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) وفي موضع آخر (كذلكَ قالَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِم . تَشابَهَتْ قُلوبُهم) . ومعنى ذلك أن هناك أديانا سماوية سابقة ذهب بها أصحابها هذه المذاهبَ في التحريف ، فجعلوا الرُسُل الذين بلّغوها أربابا من دون الله .

* * * *

إلى جانب هذه الشعبة التي ترمي إلى هدم الدين نجد اتجاها آخر يستهدف هدم الخلق . وقد جاء هذا الاتجاه متأخرا عن الاتجاه السابق زمنا ، فبدأ ضعيفا قبيل الحرب العالمية الأولى، ثم ازداد نشاطه بعد هذه الحرب . واستفحل أمره بعد الحرب العالمية الثانية . وتأخُر هذا الاتجاه السابق أمر معقول له ما يبرره ، لأن الدين ينهي عن الفحشاء والمنكر . فاذا ضعف الوازع الديني انفتح باب الفواحش، ما ظهر منها وما بطن . أمام الكُتّاب والقراء على السواء .

وأكثر ما يذاع من هذا (الأدب) الهدام – إن جاز لنا أن نسميه أدبا – يتستر تحت اسم مذاهبَ فنية أو دراسات علمية . فباسم الرومانتيكية والوجودية كُتِبَتْ ألوانٌ من الأدب – شعرِه ونثرِه – يطبعها طابع الأنانية والانطواء على

النفس الذي يورث الهمّ القاتلَ لكل همةٍ حينا . فتجد النفوسُ السقيمةُ لذّتَها في الشكوى والبكاءِ وفي أن تحيا كالبوم والخفافيش في الظلام . والذي يُورِث العكوف على الشهوات الصارفَ عن كل خير حينا آخر . وباسم الواقعية وباسم التحليل النفسي ظهرت ألوان من الأدب ومن القصص خاصة . تخوض في أوحال الرذيلة . وتَعرِض خفايا العورات . وتُجرِّح كثيرا من الفضائل بزعم أنها تورث الكَبْت . وتُبرِّر كثيرا من الرذائل باسم التنفيس . وتُسقِط التبعة في كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية . وباسم التحرر واستقلال الشخصية شاعت دعوة إلى إعادة النظر في كل مواريثنا الخُلُقية ومعاييرنا الاجتماعية . وإلى الخروج على كل ثابت مقرر مما توقره التقاليد ويقدّسه الدين . وإلى أن يبني كلُّ فردٍ لنفسه عالماً مستقلا من القيَم . تصبح معه مقاييسُ الخير والشر فردية . فلا يكون هناك خير هو خيرٌ عند كل الناس . ولا يكون هناك شر هو عند كل الناس شرٌّ . وعندئذ لا يصبح هناك مجتَمَع . لأن الروح الجماعية هي أساس كل تماسك اجتماعي . ولا يكون هناك إلا الفوضى والخراب . وباسم البحث العلمي والموضوعية راجت ألوان من الدراسات الأدبية والنقدية . موضوعُها آداب قذرة ماجنة ، زعم الزاعمون أن من مقتَضَيات المنهج العلمي أن يحترمها الدارسون حين يتناولونها بالدرس وأن لا يعلِّقوا عليها بما يَغُضُّ من قدرها أو يُسفِّه مذاهب أصحابها .

والواقع أن كثيرا من الآداب والدراسات التي تتزيى في عصرنا هذا بِزِيّ الفن والعلم وتتستر تحت اسميها ليست من النزاهة في شيء . فكثير منها موجه لخدمة مذاهب معينة ، وتدعيم اتجاهات مُغرِضة ، وتحقيق بعض الخطوات المرسومة في خطة من خطط هذه المذاهب والمصالح والاتجاهات . ومن شاء فليقرأ خطط الصهيونية العالمية الهدامة المشهورة باسم (بروتوكول حكماء صهيون) ، أو (مقررات حكماء صهيون) . ليقرأ ما جاء في البروتوكول الثاني :

(أما غير اليهود فانهم لا يستفيدون من تجارب التاريخ التي تمر بهم ، ولكنهم يتمسكون بنظريات روتينية دون تفكير في النتائج التي يسفر عنها هذا المسلك . لذلك فنحن لا نُعير غير اليهود أية أهمية . فليَلْهوا ما طاب لهم اللهو حتى ينقضي الوقت . وليعيشوا على أمل ملذات جديدة أو في ذكرى مُتعٍ سالفة . **وليعتقدوا أن هذه القوانين التي أوحينا بها إليهم ذاتُ أهمية قصوى . فبهذا الاعتقاد الذي تؤكده صحافتنا نزيد من ثقتهم العمياء في هذه القوانين** .. يجب أن لا يكون هناك اعتقاد في أن مناهجنا كلمات جوفاء . **فنحن الذين هيأنا لنجاح دَارْوِن وماركس ونيِتْشَه . ولم يَفُتْنَا تقديرُ الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود)**.

وليقرأ ما جاء في البروتوكول الرابع :

(إن لفظ « **الحرية** » تجعل المجتمع في صراع مع جميع

القوى . بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها* . على أن « الحرية » قد لا تنطوي على أي ضرر . وقد توجد في الحكومات وفي البلاد دون أن تسيء إلى رخاء الشعب . وذلك إذا قامت على الدين والخوف من الله . والاخاء بين الناس . المجرّدِ من فكرة المساواة التي تتعارض تماما مع قوانين الخَليقَة . تلك القوانين التي نَصّتْ على الخضوع . والشعبُ باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ويعيش في سلام ، ويُسَلّم للعناية الالهية السائدة على الأرض . ومن **ثَمّ يتحتم علينا أن ننتزع من أذهان المسيحيين فكرة الله ، والاستعاضة عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية .)**

وليقرأ ما جاء في البروتوكول الخامس :

(ولكي نطمئن إلى الرأي العام يجب بادىء ذي بدْءٍ أن نُرْبِكَه تماما ، **فنُسمِعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراءً متناقضة لدرجةٍ يضل معها غيرُ اليهود الطريق في** تيهِهم فيدركون حينئذٍ أن أقْوَمَ سبيلٍ هو أن لا يكون لهم أيُ رأي في الشئون السياسية .. والسرُ الثاني الملازِمُ لنجاح حكومتنا يقوم على **مضاعفة الأخطاء التي تُرتَكَب والعادات والعواطفِ والقوانينِ الوضعية في البلاد**، لدرجةٍ يتعذر معها التفكيرُ تفكيراً سليما وسط تلك الفوضى) .

وليقرأ ما جاء في البروتوكول التاسع :

(ولكي نُحَطِّم التنظيمات التي أقامها غيرُ اليهود

* جل الله وتعالى .

عاجلا ، فاننا قد دعمناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتنا . فقد كانت الأجهزة تسير في الماضي بنظام صارم ولكنه عادل. فأحللنا محله نظاماً متحرراً غيرَ منتظم . ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية ، وتحكمنا في إدارة الصحافة وفي نمو الحرية الفردية . والأهم من ذلك كلّه إشرافُنا على التعليم وهو المعوّل الرئيسي للحياة الحرة).

وليقرأ ما جاء في البروتوكول الرابع عشر :

(ونُثير حول العهد القديم من الاشمئزاز ما يدفع الأممَ إلى تفضيل السلام في العبودية على الحقوق التي تمنحها لهم حريةٌ طالما أشادوا بها مع أنها سببت لهم أقسى الآلام ... وترهق تغييرات الحكومة التي نكون قد دفَعْنا إليها غيرَ اليهود لهدم الجهاز الحكومي كاهلَ الشعوب ، فيبلغ بها الأمر حدّ تفضيل تَحَمُّلِ كلّ شيء على يدنا خوفا من أن يتعرضوا من جديد للآلام والمصائب التي مرت بهم . وسنلفت النظر بصفة خاصة إلى الأخطاء التي ارتكبتها حكوماتُ غيرِ اليهود . تلك الأخطاء التي أدت إلى تعذيب الإنسانية أجيالا طوالا) .

ولنقارن ذلك كله بما جاء في إحدى نشرات جمعية (شهود يهوه) الصهيونية *

---

* جمعية « شهود يهوه » جمعية صهيونية كما هو واضح من اسمها . فيهوه (الذي ينطق بالعبرية يهوفا) هو لفظ الجلالة باللغة العبرية . واليهود =

جاء في نشرة لهم بعنوان (أساس الاعتقاد بعالم جديد) *

(هل قلبك مريض ؟ هل هو مثقل بالويلات الغامرة **هذا العالم القديم؟** وهل يستريح وتخف آلامه إذا علمت أن نهاية القلق والخوف والشغب والحرب والمرض أمست قريبة على الأبواب ؟ ... فهل عقلك حر ؟ هل هو مستعد للاقتناع بالحق والصواب ؟ **أو أنه مغلق عليه بالتعصب الوطني ، أو الجنسي ، أو الديني ؟**) .

وجاء فيها :

(وفي الواقع قام أحد دارسي **التوراة** وحسب أن هناك ثلاثمائة واثنتين وثلاثين نبوة خاصة في **العهد القديم** قد تمت حرفيا في المسيح . وكما حدثت تلك التتمات المدهشة للنبوة عن **المسيح الأول** منذ ١٩ قرنا . نرى نظيرها يحدث الآن **في وقت حضور المسيح الثاني** .

قام الناس في محاولة عقيمة لتوطيد السلام على الأرض وألفوا هيئتين دوليتين : عصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة .

يعتبرونه إله اليهود خاصة ، لأنهم هم وحدهم أبناؤه والمختارون من خلقه . وقد اتسع نشاط هذه الجمعية التي كانت تتستر تحت الدعوة إلى السلام في البلاد العربية . ولكن أكثر الحكومات العربية تنبهت إلى حقيقتها فأغلقت مكاتبها وصادرت منشوراتها وحظرت نشاطها .

* Basis for Belief in a New world طبع بالانكليزية سنة ١٩٥٣ وبالعربية سنة ١٩٥٥ في نيويورك . ونيويورك كما هو معروف هي مركز النشاط الصهيوني الأكبر في أمريكا ، بل في العالم كله .

ولكنهما فشلتا في عمل ما يستطيع ملكوت المسيح وحده أن يعمله . تأملوا كيف تتم النبوة عن الأيام الأخيرة **وحضور المسيح الثاني** إتماما كاملا بأحوال العالم اليوم ... نعم في هذه الأيام الأخيرة من العالم القديم . كما سبق يسوع فأنبأ ، سيقوم **شهود يهوه** ويبشرون وهم على أبواب عالم جديد بإنجيل الملكوت المؤسس . ويخبرون كيف أن **هرمجدون وهي معركة يهوه** . ستنظف الأرض من الشر والإثم وتفتح الطريق للسلام والسعادة والحياة دون نهاية — ص ٥١ ، ٥٢) .

وجاء فيها :

(العالم البالي أمسى شبيها بغاب كثير الأخطار . فالروح العسكرية العطشى إلى الدماء تجول فيه بخُيَلاَء . يصحبها السياسيون النفعيون ، وجبابرة التجارة المحتالون . ورجال الدين الطفيليون المراءون . وناكثو العهد الخوانون . وفاسدو الأخلاق المنحطون . وقساة القلوب المجرمون . وهؤلاء . علاوةً على ما تقدم ، يزرعون فيما بينهم الشوك والعوسج وكل نبات سام **كالبغض الجنسي والتعصب الديني والتحيز القومي** والتعاليم التجديفية والإلحاد الشكس والفلسفات العقيمة العاملة كلها على خنق الحق الأبدي المسطر في كلمة الله — ص ٥٤) .

وجاء فيها :

(هذا العالم القديم هو الآن في طور الزوال والاضمحلال . وكل من يتمسك به سيزول معه . وإنما هناك **عالم جديد**

قادم وطافح بالحياة . وكل من يناصره سيبقى ويدوم معه إلى الأبد . فهل عقلك حر كفاية لتراه ؟ أم أنه مكبل بأصفاد التعصب الذميم فيمتنع حتى عن التفكير فيه ويأباه ؟ هل تسمح لكبريائك أن تسبق سقوطك ، أم أنك تدك تلك الكبرياء الفارغة وتزيلها من الطريق أمام التفكير الصائب الصحيح ؟ هل تستخدم عقلك لتفكر . أم تدع تعصبك يعمي بصيرتك ؟ ص ٥٩) .

من هذه النصوص التي تفسر كثيرا مما يصطرع في العالم الآن من مذاهب ونِحَل . يبدو أننا لا نغلو في القول حين نطالب بالاحتياط في قبول كلّ ما يَرِدُ على الناس باسم الفن والعلم ، وحين ندعو الناس إلى أن يعرفوا حدود طاقاتهم ، وإلى أن يحدّدوا ميادين العقل وميادين التجريب .

إننا لا ندعو إلى مصادرة البحوث النفسية والاجتماعية والخُلُقية . فذلك ما لا يدعو إليه مفكر يقدّر نعمة العقل . ولكننا ندعو إلى تقييدها بالدين ، لئلا تتفرق بالناس السبل . ولكي لا تمزقهم الخلافات الواسعة والمذاهب المتصارعة المتناقضة . وليس الدينُ قيدا في حقيقة الأمر.لأنه لا يعطل العقل ، ولكنه يحفظه من الضلال . ويُلزمه أصولا وقواعد ، هي كالسُّورِ الذي يَعْصِمُ السالكَ في الظلام من التَردّي في الهاوية. وهي مِثْلُ قوانين المنطق التي لا يُعتبَر التزامها حدا للتفكير ولكنه عصمة له . وهي مِثْلُ الدستور الذي لا يُعتَبر تَقَيُّدُ الفقهاء به في كل ما يُقَنّنُون حداً من

سلطتهم ، ولكنه ضمان لهذه السلطة يعصمها من أن تَزِيغَ عن القَصْد ، عن عِلْمٍ أو عن غير علم .

وقد كان من أثر سيادة هذه المذاهب الفردية الهدامة أن شاع في شباب الكتاب وفي بعض شيوخهم موجة من النقد تهاجم الشعراء الذين يهتمون بالمجتمع وتتناولهم بالتحقير . وتُخرِجهم من زُمْرَة الشعراء والأدباء حين تصفهم — على سبيل الاستهزاء — بأنهم شعراء مناسبات ، أو بأن ما يكتبونه ليس أدبا ، ولكنه وَعْظ . وكأنه قد أصبح من شروط الأدب أن تخرج موضوعاته عن حدود الأدب . وأن يلتزم التعبير عن جُوع المنحرفين إلى الشهوات .

وقد كانت القصة هي أبرز ما استُحدِث من فنون الأدب بعد الحرب العالمية الأولى . ولم تلبث أن طغت على سائر فنون الأدب ، حتى أخملت الشعر أو كادت . ورحبت بها الصحف على اختلاف ألوانها ، وجعلها الكثيرُ منها بابا من أبوابها الثابتة استجابة لرغبات جماهير القراء ، الذين أقبلوا عليها إقبالا شديدا . وساعد على رواجها بروزُ المسرح في صدر هذه الفترة ، ثم ظهورُ الخيالة (السينما) وتقدم صناعتها . وأعان على هذا الرواج سهولة تذوق القصة . إذ أن فهمها أو الاستمتاع بها لا يَكُدُّ ذهن القارىء . ولا يحتاج لاعداد خاص أو تثقيف طويل كما هو الشأن في سائر الفنون الأدبية ، والشعر منها خاصة . وهي مع ذلك أكثر ملاءمة للشباب ، لأنها أقدرُ على توفير الأجواء الحالمة

التي تلائم سن المراهقة خاصة . مما يجعلها أقوى الفنون الأدبية تأثيرا عليه وأخطرَها في توجيهه . وقد زاد في خطورتها سهولةُ تناولها وصعوبة التمييز بين الجيد منها والرديء على غير العارفين من العلماء وناضجي التفكير . فما أسهل أن يملأ الكاتب – أيُ كاتب ، أيَ حامل قلم – صفحاتٍ وصفحات ، وكُتباً وكتبا ، بقال وقالت ، وبحكايات ملفقة مما يستطيعه المثقفون وغير المثقفين . لا سيما بعد أن هجر الناسُ اللغةَ الفصيحة التي لا يستطيعها إلا المثقفون ، إلى لغة الأسواق التي لا يتميز فيها عالـمٌ من جاهل . باسم الواقعية وباسم الشعبية . لذلك . ولِمَا لمؤلف القصة من حرية واسعة في تصريف أحداثها ورسم شخصياتها ، أصبحت من أخطر الأدوات تأثيرا في المجتمع . وتجرأ على كتابتها القادرون عليها وغيرُ القادرين ، والناضجون من أصحاب المواهب والتافهون من الأغرار والجهال . واندس بين هؤلاء كثير من مرضى النفوس ومن ذوي الأهواء ، وممن ينقلون – حين يترجمون – أسوأ ما قرأوا من قصص الغرب الرخيصة المبتذلة ، ولا يتكلفون حين يؤلفون أكثر من تغيير الأسماء . وبذلك أصبحت القصة معرضا للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأحط الغرائز ، وتعبيرا عن أمراض النفوس وانعكاس المعايير والتنفيسِ عن الشهوات .

وفي تأثير هذا القصص الماجن على الشباب يقول أحد

الكتاب المعاصرين * :

« قد يَعْبَسُ الفتى أو الفتاة حيناً إذا قرأ أو قرأت مجونا جريئا عريان . ولكن إذا ألِفَتْ العينُ والنفس أمراً كان مَبْعَثاً للحياء أمس فقد لا تلبث العين والنفس أن تَنْزِعا إليه وتطلباه . فاذا فَقَدَتْ النفسُ نفورَها من قراءة المَخازي وتَصوُّر معانيها فقد هانت عليها المرحلة التالية وهي التَلَبُّسُ بهذه المعايب سلوكاً وعملا . وإذاً فعلى الصَوْن والعَفَاف ألفُ عَفَاء » .

* * * *

والقسم الثالث والأخير من هذه الاتجاهات الهدامة وهو الموجه إلى اللغة العربية وآدابها ، يهدف إلى تفريق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والأساليب . ويمكن حصره في شُعَب ثلاث : تتناول أولاها اللغة ، فيطالب بعضها باصلاح قواعدها ، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى اللهجات السوقية المحلية التي يطلقون عليها اسم العامية . وتتناول ثانيتها الكتابة فيدعو بعضُها إلى تعديل أصولها ، ويدعو بعضُها الآخر للتحول عنها إلى الحروف اللاتينية أو إلى حروف أخرى مبتكرة أو مقتبسة . وتتناول الشعبة الثالثة الأدب ، فيدعو بعضها إلى العناية بالآداب الحديثة ، وما يتصل منها بالقوميات الاقليمية خاصة ، أو إلى تقليد الآداب العصرية

---

* هو محمد توفيق دياب : السياسة الاسبوعية ٢٣ أبريل ١٩٢٧ .

الغربية في الأشكال والموضوعات والأساليب. ويدعو بعضها الآخر إلى العناية بما يسمونه (الأدب الشعبي) ، ويقصدون به كل ما هو متداول بغير العربية الفصيحة . مما يختلف في البلد الواحد باختلاف القرى وبتعدد البيئات .

وقد ظهرت هذه الدعوة بشُعَبِها الثلاث أولَ ما ظهرت للوجود على أيدي رجال الاستعمار في مختلف أجزاء الوطن العربي أو تحت رعايته . ولم يُسمَع لداعٍ بهذه الدعوة صوتٌ قبل القرن الأخير . وكلُّ ما كان قبل ذلك من إشارة إلى العامية أو ما كان يسميه قدماء المؤلفين (خطأ العوام) فقد كان المقصودُ به تقويمَ اللسان والتنبيهَ إلى الخطأ . لا الاحتفالَ بألفاظ العامة وأساليبهم وتسجيلَها والدعوةَ إلى معارضة لغة القرآن بها . ومن عجبٍ أن تظل العربيةُ الفصيحة جامعةً لشمل العرب ومصاحبةً لهم في كل حواضرهم التي انتقلوا إليها على اتساعها وتنوعها من الخليج إلى المحيط . وعلى كثرة ما أبدعوا من علوم وفنون ، لا يخطر ببالهم عجزُها أو قصورُها في أي ميدان من هذه الميادين . ثم يكتشفون فجأة بعد ثلاثة عشر قرناً مُشْكلاتٍ في كلماتها وفي قواعدها وفي خطها يتعذر معها أن تستمر في الحياة .

والواقع أن الدعوة بشُعَبِها الثلاث لم تنشأ إلا في ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمين وفي حمايته من ناحية ، وفي حضانة التبشير من ناحية أخرى . ويكفي أن أذكر على سبيل الاختصار أسماء سْبِتّا Wilhelm Spitta وفولارْزْ

K. Vollers وباول A. Powell وفيلوت D. C. Phillott
وبوريان M. Bouriant وماسبيرو M Gaston Maspero الذين
قادوا هذه الدعوة في مصر منذ سنة ١٨٨٠ م فظهر صداها
في صحيفة (المقتطف) الشهرية أولا سنة ١٨٨٢م ثم انتقل إلى
بقية السماسرة .

جَمَعَ بعضُ هؤلاء المؤلفين — أو الدعاة على الأصح ؛
وكلهم ممن شغل وظائف كبرى في ظل الاحتلال الانكليزي
لمصر — طائفةً من الحكايات والأمثال والأغاني من مردّدات
العوامّ في مختلف الموضوعات ، ونادوا باتخاذ اللهجة التي
كُتِبت بها هذه المردّدات لغةً للتدوين والتأليف والأدب
الرفيع . كما نادوا في الوقت نفسه باستبدال الحروف اللاتينية
بالحروف العربية . ووَضَعَ بعضُهم كتبا استنبَطَ فيها قواعد
للهجة مصر العامية — وقد اقتصر معظمُهم على لهجة القاهرة —
محاولا إقناع المصريين بأن لهجتَهم هذه لها كلُ مُقوّمات
اللغة الراقية . ولاكَ الناس كلامهم مِنْ بَعْدُ . فردده
كلُ ببغاء وكلُ بوق وكلُ سمسار وكلُ فاسد العقيدة
مزعزع الايمان . وليس في كلام هؤلاء جميعا على اختلاف
طبقاتهم ودرجاتهم فكرةٌ جديدة . فكلُ ما قالوه وما يقولونه
ترديدٌ لما قاله هؤلاء . حتى الذين أكثروا من الكلام فيما
سموه (الأدب الشعبي) وادّعوا أنهم جمعوا فيه ما جمعوا
من آثار لم يكونوا إلا ناقلين مما جمعه أمثال ماسبيرو وبوريان .
بل لقد اعتمدوا عليهم في تصنيف ما جمعوه وفي ترتيبه

وتبويبه أيضا . ولولا خشية الاطالة وضيقُ المقام لأوردت النصوص التي تثبت ما أقول* .

وَفَعل عُمّال الاستعباد مِثْلَ ذلك في بلادٍ عربية أخرى . فكتب كوسان دي برسفال كتابا في (قواعد العامية الشرقية والمغربية) سنة ١٨٥٨ م . وكتب ماسينيون كتابا في (لهجة بيروت العامية) سنة ١٩١١ . وكتب في السنة التالية كتابا آخر في (لهجة بغداد العامية) طبع في مصر سنة ١٩١٢ . وكتب بن سميل Ben Smail كتابا في (لهجة مراكش العامية) سنة ١٩١٨ . وكتب برجشتراسر Berjestraser كتابا في (عامية دمشق) طبع في هانوفر سنة ١٩٢٤ . وكتب لويس مرسييه Louis Mercier كتابا في (عربية مراكش) طبع في باريس سنة ١٩٢٥ . وكُتِبَتْ عشراتٌ أخرى من الكتب على هذا المنوال .

وأدخلوا تدريس اللهجات في مدارسهم وفي جامعاتهم ، وأنشئوا لها مدارس خاصة في بعض الأحيان . فأنشأت جامعة لندن فرعا لتدريس العربية الفصحى واللهجات العامية في أوائل القرن التاسع عشر ، وكُلِّف أحمد فارس الشدياق

---

* بسطت القول في هذه الدعوة في الجزء الثاني من كتابي (الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر) ص ٣٥٩ — ٣٨٨ . وفصلت القول فيها الدكتورة نفوسة زكريا في كتابها (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) ، وهو بحث أعدته تحت إشرافي وحصلت به على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة الإسكندرية .

بتأليف كتاب لها في اللهجات فكتب (أصول اللغة العربية المحكية) . وأسست مدرسة نابولي للدروس الشرقية سنة ۱۷۲۷ ثم جددت سنة ۱۸۸۸ . وأسست مدرسة لتعليم القناصل لهجات العرب العامية في فينا سنة ١٧٥٤ وألف لها حسن المصري كتابا في العامية المصرية سنة ١٨٦٩ سماه (أحسن النخب في معرفة لسان العرب) . وأسست مدرسة باريس للغات الشرقية الحية في أواخر الثلث الأخير من القرن الماضي . وألف لها ميخائيل الصباغ كتابين في العامية المصرية والشامية سماهما (الرسالة التامة في كلام العامة) و (المناهج في أصول الكلام الدارج) . وأنشئت مدرسة لازاريف (Lazaref) الاكليريكية للغات الشرقية في موسكو سنة ١٨١٤ ، وكلف الشيخ محمد عياد طنطاوي بتأليف كتاب لها في عامية مصر سماه (أحسن النخب في معرفة لسان العرب) .

بعد هذا العرض السريع لتاريخ الدعوة – وهو عرض يكشف عن مصدرها وعن أهدافها – أعود إلى الإشارة لكل شعبة من شعبها الثلاث في شيء من الإيجاز بقدر ما يسمح به الوقت .

أما ما يتناول اللغة من هذه الدعوات فليس لأصحابه إلا هدف واحد يسعون إليه من كل وجه وبكل وسيلة ، وهو محاربة الفصحى والتخلص منها ، دفعة واحدة إن أمكن ، وبالتدريج إذا استعصى ذلك . فهم تارة يدعون إلى العامية

دعوةً صريحة . وهم تارة أخرى يدعون إلى التوسط بين الفصحى والعامية . وتارة يدعون إلى فتح باب التطور في اللغة والاعتراف بحق الكُتّاب في تغييرها كيفما كان هذا التغيير وإلى أي مَدىً ذهب . وتارة يدعون إلى اسقاط أبوابٍ معينةٍ من النحو ، أو تعديل بعض قواعده . فإذا لم ينجحوا في شيءٍ من ذلك اكتفوا بالدعوة إلى دراسة اللهجات العامية وحصرِ مفرداتها وأساليبها ووضعِ القواعد والمعاجم لضبطها وإحصائها . أو الدعوة إلى أن يقتصر كلّ بلدٍ عربي من الفصيح على المستعمل في لهجته العامية ، وبذلك يصبح لكل بلد عربي معجمٌ لغوي خاص .

وحُجَجُ أعداء اللغة العربية لا تتجاوز الكلام عن صعوبة تعلمها من ناحية ، والقول بعجزها عن تأدية الأغراض الأدبية والعلمية الحديثة من ناحية أخرى . وربما أضيف إلى هذين السببين سبب ثالث كان الشعوبيون يكثرون من ترديده ، وهو صَبْغ الآداب بصبغة قومية حسب زعمهم . فاللغة الفصحى — على حد تعبير أحد البائدين من دعاة الفرعونية في مصر سنة ١٩٢٨ (تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية . فالمتعمق في اللغة الفصحى يُشْرَب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد ، بدلا من أن يُشْرَب الروحَ المصرية ويدرس تاريخ مصر) .

وهم يجيبون على اعتراض المعترضين بضياع التراث القديم بالتقليل من قيمة هذا التراث تارةً ، وبإمكان ترجمة

الصالح منه إلى اللهجات الجديدة تارةً أخرى. بينما يردّون على اعتراض المسلمين ، بأن علماء الدين مكلفون بدرس كتبه وتفسيرها . وربما زعموا أن دراسة القرآن ونحوَه وصرفَه وأسلوبَه هي دراسة عالية لطبقةٍ خاصة . وأن الأدب العربي القديم من شأن خاصة المتأدبين لا عامتهم . وهؤلاء الخاصة يستطيعون أن يَدْرُسوه كما يدرس طلاب الأدب في الجامعات الأوربيّة أدَبيْ اليونان واللاتين .

وقد أبطل المدافعون عن العربية كلّ مزاعم خصومها . وتتلخص ردودهم فيما يلي :

١ — ان عامة المسلمين وخاصتهم لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وسائر كتب الدين .

٢ — ليست اللغة العربية غريبة على أفهام العامة إلا إذا أريد التقعُّر واستخدامُ الألفاظ الغريبة . أما لغة الانشاء العصرية فهي شائعة في الصحف والمجلات ويفهمها الخاص والعام .

٣ — لا يجوز قياس العربية على اللاتينية . لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعدُ كثيرا من الفرق بين العربية الفصحى وفروعها العامية . فالعاميّ الانكليزي والفرنسي مثلا ينظر إلى اللاتينية نَظرَه إلى لغة غريبة . أما العامي العربي فإنه يفهم اللغة العربية الفصحى . وإذا فاته فهم بعض الألفاظ فإن المعنى الاجمالي يندر أن يفوته .

٤ — الزعم بأن اللغة العربية بِدْعٌ في اللغات ،

بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللهجة المَحْكيّة زعمٌ باطل . فلكل أمة لغة للعلم والثقافة والأدب تختلف عن لهجة الحديث والأسواق . وكذلك كان الشأن في العربية منذ الجاهلية . فكان للعرب لغةٌ أدبية موحّدة يكتبون بها أشعارهم غير التي يتحدثونها في أسمارهم وفي معاملاتهم ، والتي ربما استعملوها في أدبٍ مَحَليّ يتمثل في أرجازهم . وهذا هو السبب في إهمال كُتب الأدب للرجز واحتقارها له وتسميته (حمار الشعر) * . فتَجاوُرُ لغةِ الأدب ولهجةِ الحديث أمرٌ واقع وظاهرة طبيعية . كلٌ منهما صحيحٌ في ميدانه . فهما كلباس المصنع أو المِهْنة . ولباسِ المسجد أو المَحَافل ، يتخذهما العامل ويقتنيهما جميعا ، ولكنه يستعمل كلا منهما في موضعه** .

٥ — إن القائلين بأن يتخذ كل بلد عربي لهجته العامية هم القائلون بانحلال العالم العربي وتشتيت شمل الناطقين بالعربية . وهو شيء قد فات وقتُه ومضى أوانه . وأصبح واضحا لكل العرب أن عليهم أن يختاروا بين أن يكونوا يداً واحدة على عدوهم ، أو يكون بَأسُهم بينَهم ثم يصبحو طعاما لذلك العدو . وبين أن تكون علاقاتُهم بأبناء جنسهم

* في تعليقي على القصيدة ٤٣ من ديوان الاعشى الكبير كلام أطول في هذا الموضوع .

** في (الادب العربي في ظل القومية العربية) كلام أطول في هذه الظاهرة ص ٢٨ إلى ٣٨ ط . دار الإرشاد ببيروت .

علاقةَ أخوّة . أو تكون علاقتُهم بالأجنبي علاقة عبودية . لأن الصداقة لا تكون إلا بين الأكْفاء والمتناظرين .

٦ — قواعد النحو التي يزعمون أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة ، أنتَج الناسُ خلالها في مختلف الأمصار العربية وغير العربية ثروة من الكتب العربية الصحيحة لا تحصى . وهذه القرون المتطاولة أصدقُ شهادةً لصلاحية النحو من كل ما يزعمون . ويؤيد هذه الشهادةَ ويقويها أن الناس كانوا منذ قرن واحد أو أكثر قليلا لا يكادون في ظل الحكم التركي يقيمون العربية . ولا يقدر على كتابة مقال سليم اللغة إلا نفرٌ قليل منهم . وقد استطاعوا — رغم ما لقيت العربية في القرن الأخير من حرب الاحتلال الجائر — أن يجيدوها فَهْماً وكتابة في هذه الفترة القصيرة . وهم لم يجيدوها بتبسيط النحو ولا بتبسيط قواعد الكتابة . ولكنهم أجادوها بحفظ النحو وبحفظ قواعد الكتابة . ومن المحقق أن الجيل السابق الذي نشأ على توقير قواعد النحو وإتقانها خير من هذا الجيل الذي لا يزال يتقلب بين مشاريع وتجاريب للتبسيط والتيسير . تحتاج إلى ألف عام لكي تُثْبِت أنها لا تقل عن القواعد التي يُقْتَرح الاستغناءُ عنها فضلاً عن أن تَفْضُلها وتَرْجَحَ عليها .

أما الشعبة الثانية التي تدعو إلى ما يسمونه تيسير الخط العربي ، فتتلخص دعاوَى أصحابها في خلو الكتابة العربية

مما يسميه الغربيون Vowels ، أي حروف الحركة، التي تمثل الفتحة والكسرة والضمة . ولم يستطيعوا أن يضيفوا إلى هذه الذريعة — رغم حرصهم على تَمَحُّل الذرائع — إلا اختلافَ صُوَرِ الهمزة بين مفردة ويائية وواوية ، واختلافَ صور المَدّ في المقصور بين الألف والياء. وتعددَ صُوَر الحروف في صندوق الطباعة . وعبارتهم المشهورة في ذلك (كلُّ الناس يقرءون ليفهموا . والعربي يفهم ليقرأ) . وهذه العبارة المنسوبة لأحد الكتاب ، ككل حُجَجهم السابقة ، ليست من صنعهم . ولكنها جميعا من صنع دهاقنة الاستعباد . فهي عبارة Wilhelm Spitta في كتابه (قواعد العربية العامية في مصر) :

« Grammatik des Arabischen Vulgardialectes Von Aegypten »

و I. Selden Willmore في كتابه (عامية مصر) :

« The Spoken Arabic of Egypt »

والمشكلة التي أثارها هؤلاء مشكلة وهمية لا وجود لها إلا في رءوسهم ، لم يَشْكُ منها عامل المطبعة ولا القارىء . وقرّاءُ الصحف اليومية وعمال الطباعة فيها خير دليل على ذلك . أما وقوع الخطأ في المطبوع — قَلّ أو كَثُر — فمَرَدُّه إلى الإهمال وانعدام الشعور بالمسئولية والضيق بحمل الأمانة .

وقد اقترح بعضُهم لحل هذه المشكلة الوهمية العدولَ عن الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية واصطناعَ قواعدها في الكتابة . واكتفى آخرون باصطناع قواعد الكتابة اللاتينية مع الإبقاء على الحروف العربية ، وذلك بالتعبير عن الحركات ،

فتحةً وضمةً وكسرةً ، بحروف العِلّة ألفاً وواواً وياءاً ، وبإثبات التنوين ورسمه في الكتابة نونا ، وبرسم الشدّة حرفا مكررا . فيكتبون (محمد) (موحاممادون) رفعاً و (موحامادان) نصباً و (موحاممادين) جرّاً . وربما أضاف بعضهم إلى ذلك أشكالا جديدة تمثل الأصوات الغربية التي لا نظير لها في العربية مثل : g و j و p و v و e و o و u . واقترح فريق ثالث حروفا مبتكرة تختلف عن كلٍ من الحروف العربية والحروف اللاتينية ، كالاقتراح الذي ظهر أخيرا في لبنان باتخاذ الحروف الفينيقية القديمة .

ويتلخص الرد على اقتراحات هؤلاء جميعا واعتراضاتهم فيما يلي :

١ — ليس من السهل إعادة طبع التراث العربي — وعمرُه يزيد على أربعة عشر قرنا — بالحروف الجديدة . سواء كان ذلك في العرب أو في غيرهم من البلاد التي كُتِبَتْ آدابها وعلومُها بالحروف العربية ، وهي تشمل ما يربو على ثلاثمائة مليون من بلاد المسلمين .

٢ — لو هجرنا الحروفَ العربية إلى حروف تخالفها لنسِيَتْ الآداب والعلومُ القديمة ، كما نُسِيت آداب الهيروغليفية والفينيقية والبربرية والفارسية القديمة ، وغيرِها

من آداب اللغات الأخرى التي لا يَستخدِم الناسُ حروفَها الآن ، ولأصبح بيننا وبين تراث أجدادنا سَدٌّ منيع تعانيه الأجيال المقبلة كما نعانيه نحن في تلك اللغات . فاللغات التي حلّت الحروف العربية في كتابتها محلّ حروفها القديمة كالتركية والفارسية والأرْديّة وغيرِها ، قد نُسِيَت آدابُها القديمة وأصبح بينها وبين هذه الآداب حلقة مفقودة .

٣ ــ الخط العربي موافق لطبيعة اللغة العربية . ولو أردنا استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتحتّم علينا إيجادُ حروفٍ جديدة نضيفها إلى الأبجدية اللاتينية الحالية . لكي تعبّر عن الأصوات العربية التي لا تمثلها الحروف اللاتينية مثل ج، ح ، خ ،ش ،ط، ظ، ص ،ض، ع ، غ . ولاحتجنا إلى التمييز بين الحروف المتحركة الممدودة وبين الحروف المتحركة القصيرة .

٤ ــ محاكاةُ العرب للترك في هذا الصنيع تقليد أعمى لا تَبصُّرَ فيه ولا تدبر . لأن سبب هذا التغيير عند الترك سياسي ، وهو محاربة العنصر العربي والدين الاسلامي . فهم يريدون أن يزعموا أن المدنية التركية مدنية عريقة تتصل بالمدنيات البابلية والآشورية القديمة ، ولا اتصال لها بالتمدن الاسلامي . ولذلك اقترن هذا التغيير بكثير من المظاهر المؤدية إلى الغرض نفسه .

٥ ــ ليس من السهل أن يتفق العربُ على شكل جديد

موحد في الكتابة . لأن المصحف مكتوب حتى الآن بالرسم العثماني . والمسلمون لا يريدون أن يفتحوا ذَرائعَ للفِتَن بإدخال أي تعديل على هذا الرسم . ولا يريدون أن تكون للمصحف قواعدُ خاصة غير قواعد الكتابة العامة ، تُحيله إلى كتابٍ مهجور . وإذا انفردت إحدى البلاد العربية أو بعضُها بالتعديل المقترَح كان ذلك سبب قطيعةٍ مزدوجة ، إذ يقطعها عن تراثها العربي الماضي كما يقطعها عن عالمها العربي الحاضر . مع ما تستتبعه هذهالقطيعةُ من آثار سياسية واقتصادية في إقامة سدّ بينها وبين جاراتها وفي كساد صحفها وكتبها وكل منشوراتها .

٦ — إثبات الحركات في صلب الكلمات يضخم حجم الكتاب العربي ولا سيما إذا أضيف إليه إثبات الإدغام والتنوين . وكل ذلك دون طائل . لأن قواعد الكتابة الراهنة تفي بالغرض . ولا يحتاج معها القارىء إلا إلى قليل من الحركات كلَّ بضعة سطور . عند خوف اللَّبْس . على أن التيسير المقترح لا يُغني الكاتبَ عن تَعرّف الصواب من طريق القواعد النحوية والصرفية . ومع العلم بهذه القواعد لا حاجة إلى الطريقة المقترحة . ومع الجهل بها لا عِصْمَةَ للكاتب ولا للقارىء .

٧ — مطابقة الصوت المسموع للصورة المقروءة أكثر توافرا في اللغة العربية منها في سائر اللغات التي يريد دعاة

التطوير أن يقلدوها . ولو اتخذناأمثلة من اللغة الانكليزية لوجدنا أنها :

(١) تهمل نطق كثير من الحروف مثل h في honour . و gh في right و through . وK في Knife ، وb في Climb

(٢) وهي بعد ذلك تصور الصوت الواحد في صورٍ متعددة . مِثْلُ الياء التي تكتب (ee) و (ea) و (ei) و (ie) و (e-e) و (y-e) ، والكاف التي تكتب (c) و (k) و (ck) و (q) و (ch)

(٣) ثم إن الحرف الواحد يُنطَق في صورٍ متعددة . فحرف (c) يُنطق (س) ، (ك) ، وحرفا (th) ينطقان (ذ) و (ث)

(٤) ثم إن هناك أصواتاً ليس لها حروف تقابلها . ولذلك يستعان على تصويرها بأكثر من حرف مثل (sh) لحرف (ش) ، و(th) لحرفي (ذ) و(ث).

والخط العربي ليس من ذلك كله في شيء فكل حرف فيه منطوق. ولكل صوتٍ حرفٌ واحد يصوره. والحرف – من ناحية أخرى – لا يُنطَق إلا على وجهٍ واحد وبصورةٍ صوتية ثابتة لا تتغير .

أما حروف الحركة (vowels) فهي في الانكليزية مُربِكة ومُضلِّلة بأكثر مما هي مُعينةٌ على الضبط .

فحرف (a) مثلا يُنطَق على أشكالٍ مختلفة في (war) و
(rat) و (shame) . وكذلك حرف (u) في (nut) و
(mule) و (sure) و (survey) و (minute) . وكذلك
حرف (i) في (sin) و (sir) . وحرفا (ea) في
(wear) و (heart) و (bread) و (fear) ، وحرفا (oo) في
(blood) و (poor) و (floor) .

أما الشعبة الثالثة من هذه الدعوة الهدامة ، فقد كانت تحاول صرف الناس عن الاهتمام بالأدب العربي القديم . فهي تارة تدعو إلى أن تُخَصّ الآدابُ الاقليمية — قديمُها وحديثها — بمزيد من عناية الدارسين . فتُعنَى مصر بالأدب المصري ، وتعنى العراق بالأدب العراقي ، ويعنى الحجاز بالأدب الحجازي . إلى آخر ما هنالك من أقاليم . وتارةً تدعو إلى توجيه عناية خاصة للآداب الحديثة . وتارةً أخرى تدعو إلى العناية بما يحلو لبعض الناس أن يسميه « الأدب الشعبي » . والهدف الأول والأخير من هذه المحاولات هو صرف الناس عن الثقافة العربية الأصيلة . وتقليلُ العناية بالماضي العربي الاسلامي . شعرِه ونثرِه وتاريخِه وعلومه . بزعم أنها قد أصبحت شيئا قديما لا يلائم حياتنا ولا يتصل بها . كان ذلك هو هدف الدعاة الأولين . ثم نشأ جيلٌ من تلاميذهم الذين تشبعوا بآرائهم فأصبحوا يرددونها ترديد

الببغاوات . وأكثرهم يعادي الثقافات العربية عن جهلٍ بها وضعفٍ فيها . ومَنْ جَهِلَ شيئا عاداه . ومن فقد شيئا هَوَّنَ من شأنه ليُكْبِر من شأن نفسه .

والجانب الهدام في هذه الدعوة هو أنها تؤدي — من حيث يعرف أصحابها ومن حيث لا يعرفون — إلى تشتيت شمل العرب بل المسلمين . لأن التراث العربي العريق الذي تُبذل المحاولات المختلفة لطمسه ، هو العامل الأول في تكوين ذوقٍ عربي عام . فأعلامه الشامخة تكوّن القدرَ الثقافي المشترك الذي تزول معه عوامل الزمان والمكان . وينصهر معه العرب ، بل المسلمون ، في بوتقةٍ تُلْحِقُ آخرَهم بأولهم ، وأدناهم بأقصاهم .

ثم إن الداعين بهذه الدعوات يريدون أن يُقْحِموا على عربيّتِنا طرقا في التخيل وفي التشبيه ، وأساليبَ في نَسْقِ الكلام وصياغته ، تَبعُد بنا عن تراثنا ، وتقربنا من آداب الغرب وأساليبه . يريدون أن يُنشئوا جيلا من العرب يحس الغربة حين يقرأ تراث آبائه ، ولا يحس الطمأنينة والراحة إلا عند قراءة الآداب الغربية ، أو ما صيغ على نمطها وما سَرَت فيه روحُها .

هؤلاء هم الذين عناهم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي

حين قال (أعجميٌ يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات .
وهو لا يعرف منها غيرَها . فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما
يترجمه المترجمون من اللغات الأجنبية ترجمة حرفية . فإذا
نَعيْتَ عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم ،
كان مبلغُ ما يَنْضَح به عن نفسه أن المعاني العصرية والخيالات
الحديثة لا يُستطاع إلباسُها الأكسيةَ البدوية والأرْدِية العربية.
كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خِطَطٌ وأقسام . وأنصبة
وسهام ، هذا للشرق وهذا للغرب . وهذا للعرب وهذا
للعجم . أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي أن الرجل لا
يَنْتَزِع تلك المعاني من قَرارة نفسه . ولا يصوّر فيها صورة
عقله . وإنما هو مترجِم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية
التي يعرفها . لاصقةً بأثوابها الأصلية . فلما أراد أن يُفْضي
بها إلى العرب . وكان غيرَ مضطلِع بلغتهم ولا متمكنٍ من
أساليبهم . عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها
فنقلها إليهم كما هي . إلا ما كان من تبديل حرفٍ بحرف
أو لفظٍ بآخر . من حيثُ يظن أنه يهتف بشيءٍ قام في
نفسه ، أو يُفضي بخاطرٍ من خواطر قلبه) .

وليس الخطرُ الكبير في هذه الدعوات وأشباهِها كامنا
في الدعوة إلى العامية . ولا هو في الدعوة إلى الحروف اللاتينية.

و الدعوة إلى ابطال النحو وقواعد الاعراب أو إسقاط بعضها . فالداعون بهذه الدعوات من صغار الهدامين ومغفليهم الذين ليس لهم خَطَرُ العُتاة ، ممن يعرفون كيف يخدعون الصَّيْدَ بإخفاء الشراك ، وكيف يستدرجون الناس بتزوير الكلام . إن الخطر الحقيقي هو في الدعوات التي يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويضعونها في أحب الصور إلى الناس ، ولا يطمعون في كسبٍ عاجل ، ولا يطلبون انقلابا كاملا سريعا . الخطر الحقيقي هو في قبول مبدأ التطوير نفسه ، لأن التسليم به والأخذَ فيه لا ينتهي إلى حدٍّ معين أو مدى معروف يقف عنده المطوِّرون ، ولأن خطة الهدامين تقوم على اختلاق المشاكل والالحاح في تكرار الشكوى من متاعب لا وجود لها ، يخترعونها ثم يهوِّلون من شأنها ويُكثِرون من الأخذ والرد حولها . حتى يلفتوا إليها أنظار الناس ، وحتى ينشأ جيلٌ جديد مَرَنَتْ أذنه منذ وعى على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات . فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لا بد لها من حل ، ويتجه في أغلب الأحيان إلى أنصاف الحلول التي تُرضي الطرفين المتخاصمين حَسَبَ وهمه . والخاسرُ في حقيقة الأمر هو صاحب الحق . والربح كله للباطل وأصحابه .

ولا يزال الهدامون ماضين في اتخاذ هذا الأسلوب نفسه جيلا من بعد جيل حتى يضيع الحقُ كلُه . ولكن الحق

لا يضيع لأن الباطل زهوق ، وإنْ ظهر أمرُه إلى حين .
« كذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطِلَ . فأمّا الزَبَدُ فيَذْهَبُ جُفَاءً . وأمّا ما يَنْفَعُ الناسَ فَيمْكُثُ في الأرْض » .

(صدق الله العظيم)